بين القيم الدينية وتحولات القيم الوضعية

د. طلال عتريسي

يشهد العالم اليوم حروباً وسفكاً لا يتوقف للدماء، وضحايا من ملايين المدنيين غير المحاربين الذين سقطوا في تلك الحروب. ما يثير القلق والمخاوف من مستقبل مجهول وغير آمن للبشرية من مبررات تلك الحروب.

كما نشهد مستوىً من التطور التكنولوجي غير مسبوق في وسائل التواصل بين البشر أدخلت المجتمعات كافة في تغيرات عميقة تثير القلق والأسئلة حول إنسانية قادمة لا نعرف معناها ولا ماهيتها.

إن القلق هو مما سيكون عليه حال الإنسانية مع استمرار تلك الحروب، ومع استمرار التقدم المتسارع في تلك التقنيات التي باتت في خدمة تلك الحروب.

تعبّر الأديان عن القيم الدينية وهذه الأديان معروفة ، أما القيم الوضعية فتعّبر عنها أفكار ونظريات طرحها باحثون ومفكرون، وتجارب قدمتها شعوب وحضارات مثل تجربة الحضارة الغربية الحديثة.

المشكلة ليست أن هذه وضعية وهذه إلهية، فقد نجد ما هومشترك في تلك القيم مثل حقوق الإنسان، أوحماية البيئة، أو عدم الإعتداء..

- إن القلق الذي يساور العالم وشعوبه اليوم ليس من القيم الدينية، بل من الخوف على تراجع هذه القيم التي دعت الى المحبة والتسامح، كما جاء في الحديث النبوي "إنما بعثت لإتم مكارم الأخلاق" ومكارم الأخلاق هي كما يقول شارحوها: أن تعطي من منعك، وأن تصل من قطعك، وأن تعفوعمن ظلمك".وهي بهذا المعنى ذروة القيم الإنسانية في العلاقات الإجتماعية.

أو كما قال الإمام علي عليه السلام "الناس صنفان إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق".وهذه بدورها تلخص ما ينبغي أن تكون عليه القيم في قبول الآخر واحترام الإختلاف.

- إن القلق على القيم في عالم اليوم مصدره سياسات الدول في التوسع والاحتلال والهيمنة، بمبررات تستند الى "حق التدخل الإنساني"، الذي ينتج عنه مئات الآف الضحايا.
- كما يعود هذا القلق الى تلك العلاقة الغريبة العكسية بين التقدم العلمي والتكنولوجي المتسارع وبين تراجع القيم الإنسانية.

فكيف حصل مثل هذا الترابط السلبي بين تقدم العلم من جهة، وبين تراجع القيم الإنسانية التراحمية من جهة ثانية؟ وكيف سوغت دول العالم المتقدم لنفسها شن الحروب بذرائع مثل حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية، وحماية مصالح الشعوب؟

لقد بدأ مسار هذا الترابط السلبي الذي نشهده في العالم اليوم في تلك اللحظة التاريخية من التجربة الغربية التي قطعت فيها العلاقة مع الله سبحانه وتعالى (الغيب)، من خلال القطيعة مع سلطة الكنيسة، والتخلص من سلطتها المعرفية والمجتمعية. بحيث بات العقل وبات العلم نقيضا سلطة الكنيسة ونقيضا المعرفة الغيبية. ما سيفضي الى شيوع تلك المعادلة الشهيرة التي تقول بالعداء بين الدين وبين العلم.

- لقد تحرر العقل من سلطة الكنيسة ومن سلطة الدين. فلم يعد لديه نقطة ارتكاز ثابتة يقيس عليها بعدما وضع جانباً تلك القيم التي كانت المسيحية تبشر بها وتدعو اليها. وا جعل العقل والتجربة المعاشة وما يجري في المختبرات هو المرجعية وهو مثابة الإله الذي نعود اليه لمعرفة الحقائق. وهذه الحقائق هي التي

تولد القيم وليس العكس. أي لم يعد هناك قيم مسبقة وثابتة أتى بها الدين، بل بات العقل هو الذي يأتي بمثل هذه القيم، وهي بالتالي غير ثابتة، لإنها نتيجة تحولات العقل وتجارب البشر.

لقد ادى هذا التحول العميق الذي حصل في الحضارة الغربية الحديثة، الى وضع العقل في المقام الألوهي، وجعل المجتمع مرجعية بديلة عن الله وعن الدين، بحيث يكون صحيحاً فقط، ما يقبله المجتمع وما يريده، وليس ما تريده، أو تفرضه، أي مرجعية أخرى (دينية أو مقدسة). وبحيث يكون الركون الى صدقية المعرفة يستلزم أن ننفي عنها أي مصدر (غيبي، أو الهي) ويحصرها فقط في مصادرها التجريبية (المختبرات، والملاحظة المباشرة، والتجربة المعاشة).

هكذا يمكن أن نفهم تشريع المثلية لأن هناك في المجتمع من يريدها، وكذلك الأمر بالنسبة الى المساكنة، والى إلغاء التمايز بين الجنسين...وغير ذلك من تغيرات في قيم العلاقات الإجتماعية والزوجية والأسرية.

وسنلاحظ مع هذا التحول في تقديس الحرية كيف ستتخلص التربية من قيم الضوابط الأخلاقية والسلوكية، لتصبح حرية الطفل هي أساس التربية . وكيف ستنتشر في الرسوم الفنية لوحات العري رداً على مرحلة الإحتشام الديني الأخلاقي الكنسي. وكيف سيبدأ التنظير في الأدبيات النفسية والاجتماعية لتحرير الطاقات والرغبات، وستصبح قيمة العمل المنتج مادياً هي القيمة العليا للرجل وللمرأة على السواء . وستتراجع وظيفة الأمومة، لأنها تحد من حرية المرأة، ولأنها غير منتجة مادياً. كانت هذه التحولات بداية مسار، أو نفق سيدخله الغرب منذ نهايات الثامن عشر، وليصبح مكوناً اساسياً من مكوناته الثقافية والحضارية التي نعرفها اليوم.

لقد ترك تأليه الحرية في عصر النهضة تأثيراً قوياً وخطيراً على مستقبل الغرب وعلى الأزمات الإنسانية والأخلاقية التي نعيشها معه اليوم، في ممارساته السياسية والاقتصادية والعسكرية.

لقد تخلص الغرب مع عصر النهضة من مرجعية الإله الذي كانت الكنيسة تحكم بإسمه طوال قرون، لكنه استبدله بالعبودية لآلهة آخرين أوجدهم منظرو العلوم الفلسفية والاجتماعية والانسانية. بات العقل معبودا"، وباتت الحرية والرغبات معبوداً، وباتت التجربة والمعاش معبوداً ثالثاً.

إن استبعاد المبنى الإلهي الغيبي، يعني أن الحياة تسيرعلى غير هدى، وأن الإنسان يسعى خلف رغباته وحاجاته، وأن لا معنى لوجوده إلا بإشباع تلك الرغبات والحاجات..وهذا كله يتعارض مع مرجعية رؤية الدين (الإسلام) الى قمة الإنسان الذي اعتبره خليفة الله على الأرض، وأن عليه عمارة المجتمعات وفق المعاييرالإخلاقية الإلهية، (إنما بعثت لإتمم مكارم الخلاق) وليس وفق الرغبات الفردية، أو وفق التغيرات المجتمعية..هنا حصل الإختلاف الجوهري مع الغرب في نفيه التام لمصدر المعرفة الغيبي الإلهي. إن هذا المصدر وما يريده من الإنسان، والمعنى الذي يعطيه لوجوده (التكليف وخلافة الله) هو الذي يحقق التوازن الفردي والمجتمعي والحضاري لأنه يتعامل مع الوجود الإنساني بواقعية تامة، فيلبي حاجته الفطرية الى العبودية، والتعلق بالغيب، ويعترف في الوقت نفسه بحاجاته المادية المختلفة.

لقد تحول العلم وتحولت المعرفة من هذا المنظور القيمي وغير الإنساني الى ادوات للهيمنة وللسيطرة ولإخضاع الشعوب وتكديس الثروة. بات العالم أمام قيم جديدة التهمت حتى قيم الحرية والأخاء والمساواة. وباتت قيم القوة والمصلحة والربح والسوق، وقيم التملك والإفراط في الإستهلاك والغش لجني المال هي القيم المهيمنة. وبات المصرف (البنك) هو قلب المدينة وشريان الحياة فيها بعدما كان المسجد في المدينة الإسلامية هو هذا المركز.

مشكلة القيم الوضعية التي نعيش تجربتها الحديثة أنها فقدت نقطة الإرتكاز المرجعية. هل هي العقل والتجربة المعاشة، وما يريده المجتمع، وما تقرره مصالح الدولة ؟ ومثل هذه القيم سوف تتبدل بين زمن وزمن. أم أن هذه النقطة المرجعية المركزية هي القيم الدينية الأخلاقية الثابتة التي ترتبط بدور الإنسان فيهذه الحياة وبمعنى وجوده . فهناك فرق كبير على سبيل المثال بين اعتبار الصحة النفسية هي تحقيق للرغبات، وبين اعتبارها على العكس من ذلك هي القدرة على السيطرة على تلك الرغبات. هنا تختلف قيمة الرغبة بين تحققها وبين السيطرة عليها.

إن القيم الدينية هي قيم تصاعدية تريد أن تسمو بالإنسان نحو الخالق سبحانه وتعالى. في حين أن القيم الوضعية هي إما قيم أفقية نحو المجتمع، وإما داخلية نحو الذات. ما يعني أنها لا تبحث عن المطلق المتعالي (باعتباره هدفاً غيبياً) . وهذا يفسر بالنسبة الينا كيف تبرر القيم الوضعية الحروب التي تشنها الدول الغربية على الأمم والشعوب الأخرى،(من أجل التمدين، ونشر الديمقراطية كقيم إنسانية) بحيث يمكن للطائرات

الأميركية أن ترمي المساعدات والحصص الغذائية الى الشعب الأفغاني (مساعدة انسانية) ، وترمي هذه الطائرات نفسها الصواريخ التي تقتل المدنيين في الوقت نفسه!!

إن القلق على القيم اليوم هو من الدول الكبرى الغربية التي تقدم نفسها حامية للقيم على المستوى العالمي (حقوق الإنسان، الحريات، السلام العالمي، الديمقراطية...) وتسمي نفسها المجتمع الدولي. وهي تقدم نفسها على أنها تسهر على العالم لحمايته (قيمة أخلاقية) في حين أنها في الواقع لا تعمل سوى على تدمير هذا العالم من خلال تدمير البيئة، وتعظيم الإستهلاك، واستخدام القوة في التعامل مع الشعوب الأخرى لإخضاعها وكسر كرامتها.

ما يكتب اليوم عن أزمة الحضارة الغربية، وعن أفول الغرب، هو تأكيد على الطريق المسدود الذي وصلت اليه القيم في تجربة تلك الحضارة الحديثة .

وما يحتاجه العالم اليوم، كما يدعو الى ذلك الكثير من العلماء والفلاسفة والمفكرين في الشرق والغرب، هو العودة الى قيم التسامح والتراحم، التي تحقق الإطمئنان النفسي والإستقرار المجتمعي.